**دور الفقيه في استشراف المستقبل في النازلة والتخطيط المستقبلي لها**

**مقدمة: د. مجدي عبد العظيم إبراهيمخ**

إن التعايش في زمان أصبحت سمته الأساسية التطور والتغيير والتقدم في جميع مناحي الواقع الإنساني، سواء كان اقتصادياً أو سياسياً أو اجتماعياً أو عسكرياً، فرض أسلوباً على شكل التطور الإنساني في هذا العصر المتقدم، والمتمثل في مواكبته واللحاق بمعطيات تقدمه، واستحضار سبل التخطيط المستقبلي للحياة الإنسانية، وذلك للوصول إلى السعادة المستهدفة لبني الإنسان، وتلبية احتياجاتهم ومتطلباتهم، ولا يتحقّق ذلك إلاّ بالاهتمام بواقعهم المعاش وفهم متطلباته، وتكثيف الدراسات المستقبلية لكل الجوانب الإنسانية التي تهتم برقي المجتمعات على كافة المستويات.

مما يعني أن يتم التوجيه بالعلوم والدراسات الإنسانية التي تمس صلب هذه المجتمعات وتحميها من مزالق الانحراف والضلال؛ وصولاً إلى تحقيق جميع معطيات التقدم في جميع مناحي الحياة الإنسانية، وفق قواعد وضوابط ناظمة لهذا السلوك الإنساني، مبنيّة على شرع الله، ومحقّقة لمقاصده.

وهو ما يبرز ويؤكد دور الفقهاء والمجتهدين في ضبط ونظم السلوك الإنساني بما تفرضه معطيات واحتياجات مستقاة من واقع معاش، وتخطيطاً لمستقبل متوقع.

مما يفهم أن المجتهد أو الفقيه يضطلع بدور خطير في حياة الأمة، وقد جاء في هذا السياق: "مهمة الإفتاء  بعيدة الأثر في حياة الفرد والأمة سواء، فالفقهاء الذين دارت الفتيا على أقوالهم بين الناس، والذين خُصّوا باستنباط الأحكام وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام، هم في الأرض بمنزلة النجوم في السّماء، بهم يهتدي الحيران، وحاجة الناس إليهم عظيمة، وإذا كنا لا نتصور الاستغناء عن  الأطباء بادعاء أنّ النّاس يمكنهم النظر في كتب الطب والأخذ ما يلزمهم منها، فكذلك - هنا - نقول: إنه ليس بالإمكان استغناء الناس عن المفتين، فأُثبِت للعلماء خصّيصة  فاقوا بها سائر الأمة"([[1]](#footnote-1))، واستنادا إلى ذلك قال الشاطبي -رحمه الله-: "إن المفتي قائم في الأمة مقام النبي "([[2]](#footnote-2)).

**فالفقيه أو المجتهد في استشرافه للمستقبل والتخطيط له يكون منطلقاً من خلال الاعتبارات التالية**:

**1- الحفاظ على نصوص الدين الأصلية:**

وذلك يتمثل في القرآن الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فلقد تكفل الله -سبحانه وتعالى- بحفظه، قال -عز وجل-: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)([[3]](#footnote-3))، والحفاظ على القرآن الكريم يستلزم الحفاظ على سنة نبيه الشارحة والمبينة له، قال تعالى:(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)([[4]](#footnote-4)). فبقاء الدين قائم على حفظ نصوصه الأصلية من الضياع والتحريف، وذلك لأن ضياع الأديان وتحريفها كانا بسبب ضياع أصولها والتقصير في حفظها.

فالإسلام بنصوصه الأصلية، كتاب وسنة، محفوظ بحفظ الله، إلا أن ذلك يتم ويتحقق بهمة العلماء وجهودهم، وهو ما حظي به القرآن الكريم بعناية بالغة من المسلمين، وجمعه مرتين في عهد أبي بكر –رضي الله عنه-، وعهد عثمان –رضي الله عنه-، ولا زالت العناية به مستمرة.

وأما السنة النبوية فقد اهتم بها الصحابة ونقلها بدقة وأمانة، وتبعهم التابعون وتابعوهم، وجهودهم الكبيرة في جمع كل ما أثر عن النبي ، واشتراطهم معرفة الإسناد، نظراً لظهور الوضاعين وأهل الأهواء الذين افتروا على رسول الله .

**2- نقل المعاني الصحيحة للنصوص وفهمها بشكل سليم:**

وهو ما يتطلب فهم المقصود من الألفاظ الواردة في النصوص والأحاديث، بفهم الصحابة الذين تلقوها عن رسول الله ، خاصة إنها كانت بلغة خطابهم اليومية، وقد عايشوا أسباب نزولها، وبادروا إلى العمل بها، وتفاعلوا معها؛ لأنها كانت معبرة عن أدق المسائل في حياتهم، لأنه لو ترك الأمر لأفهام وعقول الناس، ودخول عوامل تقادم الزمان وتنوع الثقافات والأهواء، سيترتب على ذلك اختلاف وتعدد في أشكال الدين.

**3- الاجتهاد في الأمور المستجدة، وإيجاد الحلول لها:**

وهنا يعظم دور الفقيه المستشرف الذي يقف بين نصوص شرعية محدودة، وبين أحداث ومستجدات متراتبة وممتدة، والذي يتطلب فتح باب الاجتهاد والتجديد الذي يخدم تلك المستجدات، بإيجاد الحلول والتكييفات الناجعة لها وفق النصوص الشرعية المناسبة لها، وذلك دفعاً لوقوع الناس في معضلات ومشكلات تمس صلب حياتهم ومصالحهم، ودرء المفاسد عنهم، مما يفتح باباً لأعداء هذا الدين بعدم صلاحية هذا الدين وتناسبه مع معطيات ومستجدات الزمان والمكان.

**4- تصحيح الانحرافات في السلوكيات والأفكار:**

ويدور هنا المجال للفقيه أو المجتهد في تصحيح كل الانحرافات والبدع التي ألصقت بالدين الإسلامي، سواء على مستوى الاعتقادات والتصورات أو السلوك والعمل والتصدي للفتن والشبهات، في وقت ضعف فيه الوازع الديني، مما يفرض حاجة المجتمع إلى من يصحح له عقيدته، ويصلح له سلوكه بمعايير تناسب عصره، ومبنيّة على حكم شرعي مناسب.

**5- حماية الدين والدفاع عنه والجهاد في سبيله:**

ويمثل ذلك أهمية دور الفقيه أو المجتهد في استشرافه للمستقبل والتخطيط له، فالحفاظ على الدين وثوابته وتحقيق مقاصده بكل الضوابط الشرعية المقررة أمام متقلبات الأيام وتطورات النوازل والمستجدات، يجعله مصوناً من كيد الكائدين وتلاعب أعدائه وبث سمومهم في ثناياه، والتي لا يعيها ولا يستطيع أن يكتشفها إلا الفقهاء المتخصصون، الذين يملكون ناصية العلم الشرعي.

يقول ابن تيمية: -رحمه الله-: "كما قال من قال من السلف: صنفان إذا صلحوا صلح الناس: الأمراء والعلماء"([[5]](#footnote-5)). مما يؤكد أهمية دور الفقيه في حماية هذا الدين والحفاظ عليه، أمام القضايا والمسائل التي تطرأ على مجتمعه وتستجد عليه والآثار المتوقعة لها، وهو ما يفرض ضرورة فهم الواقع والمستجدات التي تطرأ على واقعه، حتى لا يكون هناك فجوة عميقة ما بين الاحتياج الفعلي الذي يفرضه الواقع بمستجداته، والمتوقع في مسائل وأحداث مستجدة ومتراتبة بإنزال حكم شرعي لا يتناسب معها ولا يعالج متطلباتها.([[6]](#footnote-6))

1. ()  الزواوي، دريد، **منهجية الفتوى في المدرسة المالكية الأندلسية:الإمام الشاطبي نموذج**. ص10 ، رسالة ماجستير. [↑](#footnote-ref-1)
2. ()  الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد، **الموافقات**، مرجع سابق،ص42، 4/178. [↑](#footnote-ref-2)
3. ()  سورة الحجر: جزء من الآية: رقم 9. [↑](#footnote-ref-3)
4. ()  سورة النحل: الآية: رقم 44. [↑](#footnote-ref-4)
5. ()  ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، **مجموع الفتاوى**، مرجع سابق، ص49، 18/185. [↑](#footnote-ref-5)
6. ()  انظر: أمامه، عدنان محمد، **التجديد في الفكر الإسلامي**، ط1، دار ابن الجوزي، 1424هـ، ص37. [↑](#footnote-ref-6)